نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه

للمستشرق الفرنسي الأستاذ جيرار تروبو
استاذ فقه اللغة العربية في السوربون - باريس

لا شكَّ ان النظـام النحويّ في كل لغـة له اهمية كبرى ، لان النظام النحويّ يعبر عن بُنْيـة اللغة ويصوغ فكر الناطقين بهـا ؛ ويُمكِننا القول إن النظـام النحويّ العربيّ يحتلّ محلاً بارزا بين النُظُم النحوية الكبرى الموجـودة في العالم ، من اجل موقعـه المتوسّط بين النظام اليوناني،في الغـرب،والنظام الهندي،في الشرق ؛ فكان من الطبيعيّ أن يلفت المستشرقون انظارهم اليـه ، ليدرسوا نشأته وتطوّره .

ان المستشرق الالمـاني Merx ، الـذي نشر في منتهى القرن التاسع عشر كتابا عنوانـه « تاريخ صناعة النحـو عند السريان » ، هو الذي زعـم لأول مرة ان المنطق اليونانـي اثّر في النحو العربي ، لان الثاني قـد اقتبس من الأول بضعـة من المفاهيم والمصطلحات .

ثـم نرى معظم المستشرقين قـد اتخذوا هذا الراي بدون تمحّل ؛ فقال المستشرق الفرنسـي Fleisch في كتاب ألّفـه في علـم اللغة : « انه مـن الواجب ان نشير الى تاثيرٍ يونانيٍّ في النحـو العربي ، فقد اقتبس الفكـرُ النحويّ العربي مفاهيم أصلية من العلـم اليوناني ، لا من النحـو اليوناني ، ولكنْ من منطق ارسطـو » .

غير أنَّ المستشرق الانكليـزي Carter رفَضَ هذا الـراي في مقالة نشرها منذ عدة سنوات،وسمّاها : « في اصول النحـو العربي » . فَبيَّن في هذه المقالـة انّ سيبويه يستعمل في الكتـاب مجموعتين من المصطلحات ، مجموعـة قليلة العدد تتضمّن مصطلحاتٍ لعلّهـا يونانية الأصل ، ومجموعة كثيرة العـدد تتضمن المصطلحات العربيـة الاصل . منقولة من الفقـه الى النحـو .

ومع ذلك فان المستشرق الهندي Versteegh نشر في مستهلّ هذه السنة ، كتابا عنوانه « العناصر اليونانية في الفكر اللساني العربي » ، يدافع فيه عن نظريّة التأثير اليوناني في النحو العربي ، فيعتبر ان النُحاة العرب القدامى قد اقتبسوا بضعة من المفاهيم والمصطلحات ، لا من المنطق اليوناني ، كما زعم Merx ، بل من النحو اليوناني ، وذلك بواسطة اتّصالهم المباشر باستعمال النحو اليوناني الحيّ، كما يقول ، في مراكز الثقافة اليونانية الموجودة في الشرق الأدنى بعد الفتح العربي .

سأود في هذه المحاضرة أن افحص تلك الآراء المتناقضة في نشأة النحو العربي ، وهذا في ضوء كتاب سيبويه ، الذي سمّاه الناس قرآن النحو حسبما روى عنه النحوي الحلبي ابو الطيّب اللغوي .

* * *

ان المستشرقين ، ليُبيّنوا التأثير اليوناني في النحو العربي ، يحتجّون على العموم بأن النُحاة العرب القدامى قد اقتبسوا من المنطق اليوناني تقسيم الكلام الثلاثي ، ومصطلحات أربعة هي : الإعراب والصرف والتصريف والحركة . فينبغي لنا اولا أن نتساءل: هل كان من الممكن ، من الناحية اللسانية ، أن يكون هؤلاء النحاة قد اقتبسوا هذا التقسيم .

إنّ تقسيم الكلام امر مهمّ جدا في كل نظام نحوي ، لانه يشترط هذا النظام ، وبالنسبة الى بُنية كل لغة، مَيّز النحاة عددا مختلفا من الاقسام . فان النحاة اليونان قد مَيّزوا في لغتهم ثمانية اقسام، وهي، حسبما قال أرسطو في كتابه في الشعر : الحرف : stoikeion

المجموع : syllabe | الرباط : syndesmos الفاصلة : arthron

الاسم : onoma الكلمة : rhema الوقعة : ptosis القول : logos

أما النحاة العرب فانهم، كما تعلمون، لم يميّزوا في لغتهم الا ثلاثة اقسام، وهي، حسبما قال سيبويه في الكتاب : الاسم والفعل والحرف .

ولكنْ ، على الرغم من الفرق الكبير الذي يظهر بين عدد الاقسام في النظامين ، يَدَّعي بعض المستشرقين ان النحاة العرب قد اقتبسوا هذا التقسيم عن المنطق اليوناني . فلِنَسْتَطِع ان نَرُدَّ على هذا الادّعاء الفاسد ، سنبحث عن كل واحد من هذه الاقسام في النظام اليوناني ، وعن القسم المقابل له في النظام العربي .

ليس لِقسْم الحرف اليوناني قِسْم يقابله في النظام العربي ، لأنَّ سيبويه لم يجعل حروف الهجاء قسما مستقلاً في تقسيمه كما فعل ارسطو . وكذلك ليس لقسم المجموع اليوناني قِسْم يقابله في النظام العربي ، لان مفهوم المجموع المركّب من حرف غير مصوّت وحرف مصوّت ، مفهوم صوتيّ يختلف عن مفهوم الحرف الساكن والحرف المتحرك الذي نجده عند سيبويه .

اما قسم الرباط اليوناني فانه لا يقابِلُ الا جزءًا من قسم الحرف العربي ؛ ونجد فرقا بينهما ، لأنّ الرباط عند ارسطو لفظ خالٍ من المعنى ، بيد أن الحرف عند سيبويه لفظ له معنى .

يشتمل قسم الفاصلة اليونانيّ على آلة التعريف والاسم الموصول ، وهما عند ارسطو لفظان خاليان من المعنى؛ فليس لهذا القسم قسم يقابله في النظام العربي ، لأنّ سيبويه يَعْتَبر ان الاسم الموصول اسمٌ غير تامّ يحتاج الى صلة، فيدخله في قسم الاسم ، كما انه يَعْتَبر أن آلة التعريف لفظ له معنى، فيدخله في قسم الحرف .

اما قسم الاسم اليوناني فانه يقابِل قسم الاسم العربي ، غير اننا نجد فَرقًا بين القسمين ، لان الاسم عند ارسطو لفظ له معنى يدل على شيء ، بيد أن الاسم عند سيبويه لفظ يقع على الشيء فهو ذلك الشيء بعينه .

وكذلك يقابل قسمُ الكلمة اليوناني قسمَ الفعل العربي ؛ فالكلمة عند ارسطو لفظٌ له معنى يدلّ على زمان ، والفعل عند سيبويه مثال اخذ من لفظ حدث الاسم ، فيه دليل على ما مضى وما

لـــسم يضن ؛ غير اننا نجد فرقـــا بين القسمين ، لان الصيغة غـــير البيّنـــة aparemphatos مضمّنة في قســـم الكلمة اليوناني ، بيـــد ان المصدر مضمّنٌ في قسم الاســـم العربي ، كما ان الصيغـــة المشتركة metochikon مضمّنة في قسمي الاســـم والكلمة معا في النظام اليوناني ؛ بيـــد ان اسم الفاعل مضمّن في قســـم الاسم فقط في النظـــام العربي .

واخيرا فليس لقســـم الوقعة اليوناني قســـم يقابله في النظام العربي ، لان مفهـــوم الوقعة التي تحدث فـــي آخر الاسم او في آخر الفعل ، مفهوم غـــير موجود عند سيبويه ؛ وكذلك قســـم القول ، الذي هو عند ارسطـــو مركّب من الفاظ لها معنى ، ليس لـــه قسم يقابله في النظـــام العربي ، لأنّ سيبويه لـــم يجعل من القول قسما مستقـــلا فـــي تقسيمـــه .

فمن الناحيـــة اللسانية ، يظهر لنـــا انه من المستحيل ان يكون التقسيم العربيّ منقولا مـــن التقسيم اليوناني ، لان عـــدد الاقسام ومضمونها يختلف فـــي النظامين اختلافا تامـــا .

ثـــم يجب علينا أن نتساءل هـــل كان من الممكن ، من الناحيـــة اللغوية ، ان يكون النحـــــاة العرب القدامى قـــد اخذوا عن النحو اليونانـــي تلك المصطلحات الاربعـــة التي هي : الاعـــراب، والصرف، والتصريـــف، والحركـــة .

يزعم أتباع التأثـــير اليونانيّ ان كلمة الإعراب نُقلـــت من الكلمة اليونانيـــة hellenismos . مـــا معنى هذه الكلمة في اصل اللغـــة اليونانية ؟ hellenismos اســـمُ فِعلٍ يوناني تعريبه، هلّـــنَ شيئا تهلينـــا ،اي صيّره هِلّينيًّـــا .

قـــال ارسطو في كتابه في الخطابة : « ان اصـــل الكلام هو الوجه الهلّيني في التكلم" ، اي الوجـــه الصحيح الذي يحصل عليـــه بمراعاة خمســـة اشيـــاء :

١ ــ باستعمال الروابط،اي حروف العطف ،

٢ ــ باستعمال الكلمات الخاصة ،

٣ ــ بعدم استعمال الكلمات الملتبسة ،

٤ ــ بتمييز الأجناس في الأسماء ،

٥ ــ بتمييز الأعداد فيها .

ويرى فيلسوفٌ رواقيٌّ ان التهلين هو التكلم الصحيح على وجه الصناعة ، لا على وجه العامة .

فنلاحظ ان الكلمة hellenismos كلمة عامة تختص بالكلام برمّته ؛ فانها اصطلاح خطابي وليس باصطلاح نحوي .

اما معاني الإعراب في اصل اللغة العربية فهي ثلاثة : اولا الإبانة والإفصاح عن الخواطر ، ثانيا إزالة الفساد في الكلام ، ثالثا تغير آخر الكلمة .

فقال ابن جني في كتاب الخصائص : « وكان الاعراب سمي قولهم : عربت معدته اي فسدت ، كأنها استحالت من حال الى حال ، كاستحالة الاعراب من صورة الى صورة » . وقال ابن الأنباري في كتاب اسرار العربية : « ان الإعراب سُمّي إعرابا لانه تُغيّر لمعنى اواخر الكلم ، من قولهم : عربت معدة الفصيل اذا تغيرت » .

والواقع ان سيبويه يستعمل كلمة الاعراب ليَدلّ على ما يسميه « مجاري اواخر الكلم »،يعني التغيّرات التي تَحدُث في آخر الاسم المتمكن،والفعل المضارع لاسم الفاعل . والاعراب عند سيبويه نقيض البناء الذي يدلّ على عدم التغيّر في آخر الكلمة .

فنلاحظ ان الإعراب كلمة تختص ببعض الكلمات فقط في الكلام ، فانها اصطلاح نحوي وليست باصطلاح خطابي .

ثم يَدّعي انصار التاثير اليوناني ان كلمة الصرف نُقلت من

الكلمة اليونانية klisis ، وان كلمة التصريف نُقلت من الكلمة اليونانية ptosis . ما هو السبب الذي دفعهم الى هذا الادعاء ؟ السبب هو ان النحاة اليونان كانوا يعتبرون أن الاسم ، بالنسبة الى حالته الاصلية التي هي حالة التسمية onomasticos ، له ميل klisis الى حالات اخرى ، كما أن الفعل بالنسبة الى حالته الاصلية التي هي حالة الحاضر enestos ، له ميل الى حالات اخرى ؛ وكان النحاة اليونان يسمّون كل واحدة من هذه الحالات المتغيرة وقعة : ptosis

قال أرسطو في كتابه في الشعر : « اما الوقعة فهي للاسم او الفعل ، وتدل على معنى حرف « ل » او حرف « الى » وما أشبه ذلك ، او على الإفراد او الجمع او نوع كلام القائل ، مثل الاستفهام او الأمر » .

وقال في كتابه في الخطابة : « تَغيُّرات الاسم المائل هي وقعات الاسم ، كما ان تغيُّرات الفعل المائل هي وقعات الفعل » .

اما معنى كلمة الصرف في كتاب سيبويه،فان هذه الكلمة تدلّ على إلحاق حرف النون للاسم،وللاسم فقط ، لان هذا الحرف علامة التمكّن ، يعني استقرار الكلمة في قسم الاسم .

واما معنى كلمة التصريف فَيَسْتَعمِل سيبويه هذه الكلمة للدلالة على التغيُّرات التي تَحدُث في داخل الكلمة،فانه لا يستعملها ابدا للدلالة على التغيُّرات التي تَحدُث في آخر الكلمة .

فنلاحظ أن مفهوم الميل ومفهوم الوقعة غير موجودين في النظام العربي ، كما أن مفهوم التمكّن ليس بموجود في النظام اليوناني .

ثم يزعم أتباعُ التأثير اليونانيّ ان كلمة الحركة تُرجِمَت من الكلمة اليونانية : kinesis ، وذلك لان بعض النحاة اليونان حَدّدوا الوقعة بانها حركة تَحْدُث في آخر الاسم ، فيستنتجون من هذا التحديد ان الحركة عند النحاة العرب كانت تَدلّ في الاصل على

المصوت الاساسي ، يعني ذلك المصوت الذي يشير الى الوقفة في آخر الاسم ، ومن ثم استُعْمِلَت هذه الكلمة بصفة عامة للاشارة الى المصوت .

نلاحظ اولا ان مفهوم التحريك في النظام الصوتي العربي لا يتفق ابدا ومفهوم التصويت في النظام الصوتي اليوناني ؛ فان ارسطو يقسم الحروف الى مصوَّتة ونصف مصوتة وغير مصوتة ، بينما سيبويه يقسم الحروف الى متحركة وساكنة .

ثم نلاحظ ان كلمة الحركة عند سيبويه تدلّ على حركات الشفة، من الضم والفتح والكسر، او على حركات اللسان، من الرفع والنصب والجر او الخفض ، عند اخراج الصوت ؛ أتَحْدُث هذه الحركة في صدر الكلمة ام في وسطها ام في آخرها ، فان الحركة في نظام سيبويه كلمة عامة ، لا تدلّ على آخر الاسم المعرب ، لانها تُسْتَعْمَل ايضا لتدلّ على آخر الاسم المبني غير المعرب ، ويمكن ان تكون كلمة معربة مجرّدة من الحركة ، كالفعل المضارع المجزوم مثلا .

من الناحية اللغوية ، يبدو لنا انه من المستحيل ان تكون هذه المصطلحات الأربعة منقولة من اليونانية الى العربية ، لان المفاهيم التي تدلّ عليها تتباعد في النظامين كل التباعد

* * *

يجب علينا الآن ان نتساءل: هل كان من الممكن، من الناحية التاريخية، ان يَعرف النحاةُ العرب القدامى النحوَ اليوناني والمنطق اليوناني فيتأثروا بهما ؟

اما النحو اليوناني فلم يستطع النحاة القدامى ان يعرفوه بطريقة مباشرة ، اذ انهم كانوا يجهلون اللغة اليونانية ، ولم يكن لديهم كتاب في النحو اليوناني مترجَم الى اللغة العربية ، فلم يستطيعوا اذن أن يعرفوا النحو اليوناني الا بواسطة النحو السرياني . فمعلومنا

ان نبحث عن العلاقات الموجودة بين النحو السرياني والنحو اليوناني من جهة ، والنحو العربي من جهة اخرى .

كان النظام النحويّ السريانيّ مرتكزا على الاقاويل الخمسة التي مَيّزها منطق ارسطو في الكلام ؛ وهي حسبما قال ايليا بن شينايا : السؤال، والامر، والدعاء، والتعجب، والنداء .

فاخترع النحاة السريان نظام النُقَط ، يعني نظام العلامات التي تقابلُ في الكتابة الاشارات الدالّة على تلك الاقاويل في المشافهة . ثم يرتكز هذا النحو على القواعد الصوتية والصرفية التي اقتبسها السريان من كتابٍ في النحو اليوناني كان قد تُرْجِم الى السريانية .

اما النحاة السريان فنقتصر على ذكر اشهرهم، وهم ثلاثة :

في القرن السابع : الاسقف يعقوب الرهاوي ، الذي صَنّف الكتاب الاول في النحو السرياني ،

في القرن التاسع : المترجم المعروف حنين بن اسحاق ، الذي ألّف كتابا في النحو سماه « كتاب النُقَط » ،

في القرن الحادي عشر : ايليا بن شينايا ، مطران نصيبين ، الذي صَنّف كتابا صغيرا في النحو .

اما تعليم النحو السرياني فكان منتشرا في اديرة السريان ومدارسهم ، كمدرسة دير قنى المشهورة ، بالقرب من المدائن ، وكالمدارس العديدة التي كانت موجودة في الحيرة عاصمة العباد ، بالقرب من الكوفة . غير اننا لا نجد اي دليل في المصادر السريانية ، ولا في المصادر العربية ، على ان النحاة العرب القدامى قد اتصلوا بالنحاة السريان ، او تَعلّموا اللغة السريانية .

وفضلا عن ذلك ، كان النحاة السريان انفسهم يُعتبرون ان النحو العربي يختلف عن النحو اليوناني من جهة ، وعن النحو السرياني من جهة اخرى ، اختلافا تاما . ومما يدل على ذلك ان

حنينا بن اسحاق ألّف كتابا في النحو العربي ، على المنهاج اليوناني ، سمّاه « كتاب احكام الإعراب على مذهب اليونانيين ». وقد ذكر الخوارزمي فصلا يسيرا منه في كتاب مفاتيح العلوم . وصنّف حنين كتابا آخر في النحو العربي ، زعم فيه ، حسبما روى عنه ايليا بن شينايا : « ان العرب ليس لهم نحو يعرفون به المعاني الغامضة كما للسريانيين »، ويستدل من قوله ان نحو العرب غير كاف ولا مقنع لما يحتاج اليه .

أما ايليا بن شينايا فأفرد مجلسا من المجالس التي جرت بينه وبين الوزير الحسين بن علي المغربي ، بمقارنة نفيسة بين النحو العربي والنحو السرياني ، يوضح فيها الفرق بين النظامين ، كما يدلّ على ذلك الحوار التالي بين الرجلين :

« قال الوزير : ترفعون الفاعل وتنصبون المفعول كما تفعل العرب ؟ قلت : لا .

قال : فكيف تعرفون الفاعل من المفعول ؟ قلت : يُدخل السريان على المفعول حرف اللام ليُفرّق بينه وبين فاعله ؛ ولما كان العرب انما يرفعون الفاعل وينصبون المفعول ، ليفرّقوا بينهما، وكان للسريان علامة تَدُلّهم على الفرق بين الفاعل والمفعول هي ابين من الرفع والنصب ، ما احتاجوا أن يرفعوا الفاعل وينصبوا المفعول كما تفعل العرب » .

فيدلّ كلّ ذلك على ان النحو اليوناني لم يستطع ان يؤثر على النحو العربي بواسطة النحو السرياني ؛ وبعكس ذلك ، في القرن الحادي عشر ، نرى ايليا مطران طيرهان يصنّف كتابا في النحو السرياني يُدخِل فيه النظام العربي ؛ فالنحو العربي هو الذي اثر في النحو السرياني .

أما المنطق اليوناني فلم يستطع النحاة القدامى ان يعرفوه في القرن الثاني للهجرة،الثامن للميلاد ، اذ ان تاليف ارسطو لم تنقل

بعد الى اللغة العربية ؛ فاننا نعلم ان الكتاب في العبارة والكتاب في المقولات لم يُترجَما الا في القرن الثالث للهجرة ، التاسع للميلاد ، على يد حنين بن اسحاق ؛ كما نعلم ان الكتاب في الشعر لم يُترجَم الا في القرن الرابع للهجرة ، العاشر للميلاد ، على يد مَتّى بن يونس .

واذا اطّلعْنا على هذه الترجمات لاحظنا ان المترجِمَ السرياني لم يَستَعْمِل مصطلحات النحو العربي ليترجِمَ مصطلحات النحو اليوناني، ولكنه اخترع مصطلحات عربية جديدة .

فانه ترجم اللفظة stoikeion بأسطقس ، ولم يترجمها بحرف ، وترجم اللفظة syndesmos برباط ، ولم يترجمها بحرف ، وترجم اللفظة rhema بكلمة ، ولم يترجمها بفعل ، وترجم اللفظة klisis بميل ، ولم يترجمها بإعراب ، وترجم اللفظة phone بمصوّت ، ولم يترجمها بحركة .

وفي القرن الرابع للهجرة ، العاشر للميلاد ، نرى الفلاسفة العرب يخترعون مصطلحات جديدة ، ليُفسّروا كتب المنطق اليوناني في اللغة العربية . فان الفيلسوف المنطقيّ الكبير ، ابا نصر الفارابي ، يقول في كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، بصدد حروف المعاني :

« ان هذه الحروف هي اصناف كثيرة ، غير ان العادة لم تَجْرِ في اصحاب علم النحو العربي الى زماننا هذا ، بأن يُفْرَد لكل صنف منها اسمٌ يَخُصُّه ؛ فينبغي ان نستعمل في تعديد اصنافها الاسامي التي نالت الينا عن اهل العلم بالنحو من اهل اللسان اليوناني ، فانهم افردوا كلّ صنف منها باسم خاص » . فاخترع الفارابي خمسة مصطلحات ليدلّ على هذه الاصناف من حروف المعاني ، وهي : الخوالف ، والواصلات ، والواسطات ، والحواشي ، والروابط .

وفي نفس الحقبة ، يروي لنا الفيلسوف ابو حيّان التوحيدي ، في كتاب الامتاع والمؤانسة ، مناظرة مشهورة جرت بين متّى بن يونس المنطقي وابي سعيد السيرافي النحوي ؛ فمما يبيّن ان

متّى كان يعتبر أن المنطق ليست لـه صلة بالنحو ؛ الحوار التالي بين العالمين :

« قال أبو سعيد : أسألك عن معاني حرف واحد، وهو دائر في كلام العرب، وهو الواو ، ما أحكامه، وكيف مواقعه، وهل هو على وجه أو وجوه ؟ فبهت متى وقال : هذا نحو، والنحو لم أنظر فيه ، لانه لا حاجة بالمنطقي اليه ، وبالنحوي حاجة شديدة الى المنطق ، لان المنطق يبحث عن المعنى، والنحو يبحث عن اللفظ » .

فيدلّ كلّ ذلك على أن المنطقيين السريان والفلاسفة العرب كانوا يشعرون بأن النحو العربي لا يتعلق بالمنطق البتّة .

من الناحية التاريخية ، يظهر لنا انه من المستحيل أن يكون النحاة العرب القدامى قد عرفوا النحو اليوناني والمنطق اليوناني فتأثروا بهما في نظامهم .

* * *

ينبغي لنا أخيرا ، أن نتساءل، هل كان من الضروري ، من الناحية المنهاجية ، أن يكون النحاة العرب القدامى قد اقتبسوا بضعة مصطلحات من النحو اليوناني ؟

فاذا اطلعنا على كتاب سيبويه ، لاحظنا أن لغته غنيّة جدًّا ، لانه يستعمل عددا وافرا من المفردات ليعرض نظامه النحوي . ولكنّنا لم نكن نعلم بالضبط مبلغ هذا العدد ؛ فعزمنا أن نُحصي جميع المفردات التي استعملها سيبويه في لغته الشخصية دون لغة الشواهد القرآنية والشعرية ، فوجدنا أن عددها يبلغ : ألفا وثمانمئة وعشرين .

ما هي المعلومات التي نستطيع أن نستنتجها من هذا الاحصاء ؟

اذا ضربنا صفحا عن المفردات المستعملة في معناها العادي ، بدون معنى اصطلاحي ، وعددها مئتان وعشرون فقط ، استطعنا أن نُميّز في الكتاب خمسة أنواع من المفردات :

اولا : المفـــردات التي تتعلّق بالمفاهيـــم النحوية العامة ، يعني : باقسام الكلام وانـــواع الالفاظ واحوالهـــا .

ثانيا : المفـــردات التي تختص بتركيب الجُمَـــل ، يعني بمواضع الالفاظ في الكـــلام ومجراها من ناحية العمـــل .

ثالثا : المفـــردات التي تتعلق بالتصريـــف ، يعني بتغيير الالفـــاظ في اللغـــة وصياغتها بالاشتقـــاق .

رابعا : المفـــردات التي تختص بالصوتيـــة ، يعني باخـــراج الاصوات ومجراهـــا في بنيـــة الالفاظ .

خامسا : المفـــردات التي تتعلق بالمنهـــاج ، يعني بالمفاهيم التي يستعملها سيبويـــه ليفسّر الوقائع النحويـــة والوسائل التي يستعملها ليوضحهـــا .

أمـــا توزيع تلك المفردات العددي ، فـــانّ المفردات التي تتعلّق بالمنهـــاج هي الأكثر ، وعددها ستمئـــة وخمسون ، ثـــم تتبعها المفردات التي تختص بالمفاهيـــم العامة ، وعددها ثلاثمئـــة وتسعون ، ثـــم المفردات المتعلقة بالتصريف والتـــي تساوي المفردات المتعلقـــة بالصوتية ، وعددها ثلاثمئـــة وعشرون ، واخيرا المفـــردات التي تختص بالتركيب ، وعددها مئتـــان وخمسون .

فمن البـــيّن انّ عددًا وافرًا من المصطلحات النحويـــة كان تحت تصرف النحاة العـــرب القدامى ؛ فمن المستحيـــل ان يكونوا قد احتاجوا الى اقتباس بضعةٍ مـــن المصطلحات الأجنبية ، يونانيةً كانت ام سريانية ؛ فما معنى تلك العَشَرة من المصطلحات التي يزعـــم المستشرقون ان النحاة العرب قـــد اقتبسوها من اللغـــة اليونانية ؟ ما تعنـــي تلك العَشَرة بالنسبة الى المئـــات والمئـــات من المصطلحات التي كانـــت متناولَةً في لغتهـــم ؟

اظـــنُّ ان المستشرقين قـــد اخطأوا عندما اعتمدوا على بضعة مـــن مصطلحاتٍ يونانيـــة ليبرهنوا على مضارعـــة النظام العربي

النظام اليوناني . لانَّ كلّ واحد من المصطلحات جزء من نظام معقد ، ليس لـه معنى ، خارجا عن هـذا النظام .

* * *

لقد بيّنّا انه من المستحيل ان يكون النحو العربي القديم قد اقتبس مصطلحات من النحو اليوناني ، وذلك من جميع النواحي : من الناحية اللسانية ، ومن الناحية اللغوية ، ومن الناحية التاريخية ، ومن الناحية المنهاجية . غير انه تبقّى علينا الاجابة على هذا السؤال : كيف نشأت هذه المصطلحات التي نرى سيبويه يستعملها في كتابه ؟

اذا فحصنا الكتابَ وجدنا ان سيبويه لم يُحدِّد المصطلحات التي يستعملها ؛ فهذا يدلّ على انه لم يَخْلق مصطلحات جديدة ، وانه يستعمل تلك التي استعملها قَبْلَه النُحاة القُدامى الذين يذكرهم في الكتاب ؛ كما يدلّ ذلك على ان معاصريه كانوا يفهمون تلك المصطلحات بدون صعوبة وبدون تفسير ؛ لماذا ؟

لانه من المحتمل ان سيبويه استعمل المصطلحات المشتركة بين العلوم الاسلامية الأصليّة التي هي : القراءات، والحديث، والفقه، والنحو . وقد تكوّنت تلك المصطلحاتُ في وقت واحد في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ، الثامن للميلاد ، في مِصْرَي العراق المسلِمَين ، البَصرة والكوفة ، فكان القُرّاء والمحدّثون والفقهاء والنحاة يستعملون نفس المنهاج ونفس المفاهيم ونفس المصطلحات ، لانهم كانوا يقصدون الى نفس الهدف الذي هو سلامة لغة التنزيل الإلٰهي والحديث النبوي .

ويُمْكِننا القول إن النحو ، منذ بدايته ، كان مرتبطا بالحديث والفقه ، اذ ان كتب اخبار النحويين تروي لنا عن نصر بن عاصم الليثي ، وهو اول من وضع العربية بعد ابي الاسود ، انه كان فقيها عالما بالعربية والحديث ، كما انها تروي لنا عن يحيى بن يعمر ،

وهو أول مَن نَقَّط المصاحف ، انه كان ايضا فقيها عالما بالعربية والحديث .

فكان العلماء ، في غالب الاحيان ، يتلقّون جميع العلوم الاسلامية قبل ان يتخصّصوا في واحد منها . فنعلم مثلا ان النحوي المشهور الخليل بن احمد ، وهو واحد من اساتذة سيبويه ، قبل ان ينصرف الى النحو ، تَعلّم الحديث والفقه عن ايوب السختياني ، الذي كان فقيها من فقهاء البصرة ومحدّثا من محدّثيها .

وكذلك ، نعلم ان سيبويه قَدِمَ البصرة ليكتب الحديث ، فلزم حلقة حماد بن سلمة ؛ ويروى عنه انه بينما كان يستملي على حماد قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس من اصحابي الا من لو شئت لأخذت عليه ليس ابا الدرداء » فقال سيبويه : « ليس ابو الدرداء » وظنّه اسم ليس ، فقال حماد ، لَحنتَ يا سيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت ، وانما « ليس » ههنا استثناء ؛ فقال سيبويه : سأطلب علما لا تلحنني فيه ؛ فلزم الخليل فبرع .

وكذلك ، يُرْوَى عن حماد بن سلمة انه كان يقول : « من لحن في حديثي فقد كذب » ؛ فَتَدُلّنا هذه الرواية على العلاقات الوثيقة التي كانت تربط الحديث بالنحو .

وكان العلماء القدامى يُعتبرون ان النحو اول العلوم الاسلامية واسبقها ، فكانوا يفضّلونه على العلوم الاخرى ؛ وذلك لان النحوَ العلمُ الاساسي الذي يحتاج اليه جميع العلوم ، والذي لا يستغني عنه عالم .

فَيُرْوَى عن ايوب السختياني انه قال : « تَعلّموا النحو فانه جمال للوضيع وتَرْكُه هجنة للشريف » ، كما يُروَى ايضا عن حماد بن سلمة انه قال : « مَثَلُ الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو ، مَثَلُ الحمار عليه مِخلاةٌ لا شعير فيها » .

وفي الختام ، فأنا اعتقد ان علم النحو اعربُ العلوم الاسلامية ، وابعدُها عن التأثير الأجنبي في طوره الأول ، كما حاولتُ ان أُبيّن ذلك في ضوء كتاب سيبويه ، ذلك الكتاب المشهور الذي هو اقدم كتب العربية في النحو .